مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

ملف خاص عن الكتاب المدرسي

- علي صديقي
- حياة شتواني
- الحسين زاهدي
- أحمد الكبداني
- عبد الوهاب صديقي

مقالات

- مصطفى حجازي
- الغالي أحرشاو
- بنعيسى زغبوش
- عبد العزيز قريش
- العربي الهداني
- عبد الرحيم الضاقية
- جمال الحنصالي
- يونس البوتكمانتي
- رشيد بن بيه

العدد التاسع والأربعون - أكتوبر 2011

المنهج البنيوي في الكتاب المدرسي: قراءة نقدية

✍ علي صديقي

صدرت الكتب المدرسية الثلاثة المقررة لتلاميذ السنة الثانية من سلك البكالوريا، مسلك الآداب والعلوم الإنسانية، وهي الممتاز في اللغة العربية، وفي رحاب اللغة العربية وواحة اللغة العربية، عام 2007، الأول عن مكتبة الأمة للنشر والتوزيع، والثاني عن الدار العالمية للكتاب، ومكتبة السلام الجديدة، والثالث عن شركة النشر والتوزيع المدارس، وجميعها بالدار البيضاء.

وقد ساهم في تأليف هذه الكتب نخبة من الأساتذة والمفتشين التربويين بالتعليم الثانوي التأهيلي. وهي تضم، إلى جانب دروس علوم اللغة، والتعبير والإنشاء، مجموعة من النصوص الأدبية الإبداعية -الشعرية والنثرية- والنقدية -النظرية والتطبيقية- التي عمل المؤلفون على انتقائها -في كثير من الحالات- بعناية فائقة، ووفق معايير محددة ودقيقة. فجاءت -في أغلب الحالات كذلك- ممثّلة -أحسن تمثيل- للخطاب الأدبي أو النقدي المراد تمثيلها له، وملائمة لمستوى المتعلمين.

وفيما يتعلق بالمنهج البنيوي في الكتب المذكورة، موضوع هذا البحث، أجدني مدفوعا، من باب النصفة، إلى التنويه بالمجهود الذي بذله المؤلفون لتبسيط البنيوية ومفاهيمها النظرية وإجراءاتها التطبيقية، وجعلها في متناول المتعلمين، وذلك من خلال انتقاء نصوص نظرية وتطبيقية لرواد النقد البنيوي في العالم العربي، وتذييل هذه النصوص بأنشطة تساعد على ملاحظتها وفهمها وتحليلها وتقويمها؛ أي تساعد على تقديم قراءة منهجية لها. بالإضافة إلى المقدمات التي تتصدرها.

ولذلك، فإن الملاحظات التي سأستعرضها، هنا، لا تنتقص من قيمة هذه الأعمال، وإنما تستهدف فقط إغناءها، وتجاوز نقائصها، بما يخدم مصلحة التلميذ المغربي.

لكن، وقبل استعراض هذه الملاحظات، لابد من دفع وهم وقع فيه أحد الباحثين في مجال التربية، حيث رفض هذا الباحث اعتبار معدّي الكتب المدرسية مؤلفين، بدعوى أن هذه الكتب تضم نصوصا لغيرهم من المبدعين المغاربة والمشارقة، وأن عملهم يقتصر على اختيار النصوص الأدبية وجمعها وترتيبها.[1] وهذه الدعوى مردودة من وجهين:

أولهما، أن الجمع والترتيب ليسا عملين هيّنين، بل هما مرتبتان من مراتب التأليف السبعة في التراث العربي الإسلامي؛ فقد حصر ابن حزم الأندلسي (توفي 456هـ) مراتب التأليف المحمودة -التي لا يؤلف أهل العلم إلا فيها- في سبعة، هي: الابتكار، والتتميم، والتصحيح، والشرح، والاختصار، والتجميع، والترتيب. يقول ابن حزم: «(...) والأنواع التي ذكرنا سبعة لا ثامن لها: وهي إما شيء لم يسبق إلى استخراجه فيستخرجه؛ وإما شيء ناقص فيتممه؛ وإما شيء مخطأ فيصححه؛ وإما شيء مستغلق فيشرحه؛ وإما شيء طويل فيختصره؛ دون أن يحذف منه شيئا يخل حذفه إياه بغرضه؛ وإما شيء مفترق فيجمعه؛ وإما شيء منثور فيرتبه.»[2]

وثانيهما، أن هذه الكتب لا تتضمن نصوصا لغير مؤلفيها فحسب، بل تتضمن إلى جانبها، دروسا لغوية متنوعة، وأخرى في التعبير والإنشاء، وجملة من المقدمات النظرية والمنهجية التي تتصدر هذه النصوص، وتقترح عددا من الأنشطة.

* ملاحظات حول تقديم البنيوية في الكتاب المدرسي:

أولا: ضم كتاب **الممتاز** نصيّن نقديين تطبيقيين؛ الأول مأخوذ من كتاب: **في حداثة النص الشعري**، لعبد الله شريق، يقدم فيه صاحبه تحليلا لقصيدة «الليل والفرسان»، لحسين القمري، مأخوذة من ديوانه: «كتاب الليالي». والثاني، مقتطف من كتاب: **في معرفة النص، دراسات في النقد الأدبي**، ليمنى العيد، تحلل فيه رسالة للخليفة عمر بن الخطاب موجهة إلى أبي موسى الأشعري.

ولنا على هذين النصين الملاحظات الآتية:

1. استهل الناقدان نصيهما بتحديد طبيعة التحليل الذي سيقدمانه فيهما، والهدف منه. يقول عبد الله شريق: «سأحاول الآن تقديم **تحليل نصي** لإحدى قصائد الديوان، هي قصيدة «الليل والفرسان»، من أجل الكشف عن بعض مميزات تلك الرؤيا على مستوى البنية الرمزية، مع توخي التركيز والإيجاز الذي يتطلبه المقام.»[3] وتقول يمنى العيد: «نقوم هنا بمحاولة مبسطة، تقتصر على **تحليل جزئي** للنص (...). نستهدف من دراسة النص هذه،

تبيان ما تحمله بنيته من دلالات، كما نستهدف طرح جدوى محاولات مثل هذا المنهج النقدي لنقاش مجد يخدم ممارسات نقدنا العربي.»[4]

وهكذا يظهر أن الناقدين لم ينصا صراحة على أنهما سيعتمدان المنهج البنيوي في تحليلهما، بل إن أحدهما صرح بأنه سيقدم «تحليلا نصيا»، بينما صرح ثانيهما بأنه سيقوم بتحليل «جزئي للنص». وكلاهما؛ أي التحليل النصي والتحليل الجزئي، لا يحيل –بالضرورة – إلى المنهج البنيوي؛ فالنصية والجزئية ليستا رديفتي البنيوية، كما أننا لا نعرف أحدا من الباحثين العرب ترجم المفهوم الأجنبي Structiralisme بلفظتي «النصية» أو «الجزئية».

صحيح أن البنيوية منهج نصي؛ أي أنها تقتصر على دراسة المستويات الداخلية للعمل الأدبي، دون الالتفات إلى ما هو خارج النص، كما يفعل النقد الاجتماعي أو التاريخي مثلا. لكن، ليس صحيحا أن البنيوية هي المنهج الوحيد الذي يقدم تحليلا نصيا للنص الأدبي، بل هي أحد المناهج النصية فقط، إلى جانب مناهج أخرى، مثل: الأسلوبية، والسيميائيات، والتفكيكة.

وصحيح أيضا أن البنيوية التي تقتصر على دراسة المكونات الداخلية للنص، تقدم تحليلا جزئيا للعمل الأدبي. لكن، في نظر خصومها لا أنصارها ودعاتها، لأن لفظة الجزئية تحمل دلالات سلبية قدحية قد لا تروق لأنصار البنيوية. ولذلك، يجوز لنا استعمال لفظة الجزئية وصفا للتحليل البنيوي، لكن حين نكون بصدد نقده لا تقديمه –بموضوعية– إلى المتلقي وتعريفه به، لتمكينه من تكوين فكرة عنه.

2. زعم عبد الله شريق في بداية نصه أنه سيقدم تحليلا نصيا للقصيدة، غير أن القارئ لنصه ولنص يمنى العيد سيلاحظ أنهما لم يكتفيا بتقديم تحليل نصي يركز على المستويات الداخلية للنصين المحلّلين، بل تجاوزاه إلى ربطهما بالواقع العربي (كما فعل شريق)، وبالسياق الفكري الثقافي للعصر الذي أنتج فيه، وبمؤلفه كذلك (كما فعلت العيد)؛ حيث يخلص شريق إلى أن قصيدة «الليل والفرسان» تجسد «واقع الحال العربي»،[5] وتعكس «حالة التردي والسكون والهمود» التي يعيشها هذا الواقع.[6] ويؤكد أنه قصد من وراء تحليله للقصيدة، «تقديم صورة عن طبيعة تشكل وانبناء الرؤيا الواقعية (كذا) في الديوان (...).»[7] أما العيد فقد رأت أن رسالة عمر بن الخطاب تندرج «في السياق الفكري – الثقافي للعصر، المتميز بطابعه الديني المقدس»، وأنها تعبر عن «طموح هذه الثقافة، وشوقها نحو السيرورة». كما أنها «تضيء» «روحية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفكره.»[8]

وهذا التحليل الذي قدمه الناقدان للنصين يحيلنا إلى البنيوية التكوينية أو التوليدية

عند لوسيان كولدمان Lucien Goldmann، التي ترى أن العمل الأدبي ليس بنية لغوية مغلقة، وإنما هو بنية مفتوحة على البنية الاجتماعية، كما أنها تمنح دورا للمؤلف وللإنسان عامة. بخلاف البنيوية –التي غالبا ما تنعت بالشكلية– التي أقصت المجتمع، وألغت دور المؤلف والذات الإنسانية عامة، حتى صارت توصف بأنها فلسفة «موت الإنسان».

من هنا، فإن ربط النص بمؤلفه، وبواقعه الاجتماعي وسياقه الثقافي الذي أنتج فيه، يتعارض كليا مع مقولة «موت المؤلف» التي أطلقها البنيويون، ومع مفهوم «البنية» نفسه عند البنيويين، الذي يتصف بالانغلاق والاستقلال عن أي عناصر خارجية، إلى جانب خصائص أخرى.[9]

فلْنعد إلى كتابي شريق والعيد –مصدريْ النصين– لنرى ما يقصده الباحثان بـ«المنهج النصي» الذي طبقاه في هذين النصين.[10]

إن التحليل النصي عند شريق ليس هو التحليل البنيوي، ولا هو رديف له، بل هو أوسع منه وأشمل، إنه تحليل «توفيقي» «تكاملي» يتجاوز الأحادية المنهجية، وينفتح على مختلف المقاربات النقدية التي توصف بالنصية، والتي تهتم بدراسة المستويات الداخلية للنص. من هنا، فإن **النقد النصي «لا يشكل مذهبا أو منهجا واحدا ثابتا في التحليل والدراسة وإنما هو اتجاه عام يضم كثيرا من المناهج والمقاربات والمفاهيم والأنماط التحليلية التي تلتقي كلها – على اختلافها – في العناية بالبنية الداخلية للنص الأدبي.»**[11]

وتتمثل هذه المناهج والمقاربات المتعددة والمختلفة فيما بينها من حيث مفاهيمها وأدواتها الإجرائية التحليلية – بحسب شريق – في «**النقد الشكلاني**»، و«**النقد البنيوي التكويني**»، و«**النقد البويطيقي**»، و«**النقد السيميولوجي**»، و**غيرها**.[12]

وإذا انتقلنا إلى العيد، وجدناها هي الأخرى لا تقصد بالدراسة النصية أو الجزئية الدراسة البنيوية، ويكفي أن نعود إلى الفصل الأول من القسم الأول من الكتاب،[13] بل يكفي أن نعود إلى مقدمة طبعته الأولى، أو مقدمة طبعته الرابعة، لنستجلي موقفها من البنيوية، ونستوضح مفهوم الدراسة النصية عندها؛ فهي تنتقد البنيوية، وتتهمها بالقصور والعجز لاكتفائها بتفكيك بنية النص وتركيبها،[14] ولنظرها إلى النص الأدبي بوصفه مجرد «مادة هيكلية» معزول عن مجاله الاجتماعي وسياقه الثقافي اللذين يمثلان «خارج» النص الذي أهمله المنهج البنيوي، والذي يرتبط بداخله ارتباطا وثيقا.

من هنا، فإن المنهج البنيوي، وبحكم اهتمامه بالعناصر الداخلية للنص فحسب، وعزله النص عن مجاله الثقافي والاجتماعي، أي عن خارجه، هو – في نظرها – «**غير قادر على**

إقامة الجدل بين الداخل و«الخارج»، أو بتعبير جدلي، على رؤية «الخارج» في هذا الداخل. إن إقامة مثل هذه العلاقة أو النظر بمثل هذه الرؤية هو نظر الفكر الماركسي كفكر جدلي تاريخي.» [15]

وتختم الناقدة حديثها عن البنيوية ونقدها لها بالقول: «ولئن كنا نعيش في مجتمعاتنا العربية واقعا تاريخيا تسقط فيه باستمرار قيم جمالية، أو تدمر، فإنه من الصعب علينا، **بل من غير الجائز، أن نرى في النقد البنيوي المقتصر على التحليل الهيكلي مسارا لنقدنا، أي لنقد أدب يحاور واقعه ويسعى إلى تشكيل ملامحه الجمالية وقيمه الإنسانية.**

وقد يكون علينا أن نعرف ما هي البنيوية، وماذا قدمت، وقد نستعين بما قدمته، أو بشيء مما قدمته. لكن يبقى علينا أن نسأل:

هل يمكن للبنيوية أن تستجيب لأسئلة يطرحها تاريخنا الثقافي وواقعنا الأدبي؟ وكيف يمكن للغتنا أن تتفتح على الحياة إذ تتكفئ عن محاورة أسرارها المغروسة في ذاكرة الزمان والمكان؟» [16]

ومقابل هذا النقد الذي وجهته الناقدة إلى البنيوية، تقترح في كتابها ممارسة نقدية لا تعزل النص عن خارجه ومرجعه، ولا تغلقه على نفسه. تقول الناقدة: «يقدم الكتاب في المقابل موقفا يرى إلى النص الأدبي في نبضه الحي **ويقترح قراءة (يمارسها) لا تعزل النص «عن حوضه البشري الذي ينمو فيه ويحيا»**. ويرى أن المعرفة نشاط خلاق «قائم في سياق التحول، كما هو قائم في بنى النشاط المنحرفة نحو شكلها الخاص».» [17]

وتقول في موضع آخر من الكتاب، بعد إشارتها إلى التيار النقدي الذي «يشتغل على النص»، [18] وهو تيار متعدد الاتجاهات، ومتطور باستمرار، ومتجاوز لمفاهيم البنيوية رغم أنها تشكل أساسا مهما له - : «لسنا هنا في معرض الكلام على حركة النقد الحديث أو على اتجاهاتها العدة بما فيها الاتجاه الماركسي المستفيد من إنجازات البحوث العلمية على اللغة وعلى البنية، والذي يشكل، في حرصه على كشف المستوى الإيديولوجي في النص، استمرارا للاتجاه الغولدماني (للنقد السوسيولوجي المسمى بالبنيوية التكوينية) (...) لذلك اكتفي بالإشارة إليها لأقول **إني اخترت العمل على النص انطلاقا من هذا التيار في خطوطه العريضة، واستنادا إلى الفكر الماركسي في مفهومه للعلاقة بين البنية التحتية وبين البنية الفوقية التي يفرزُ منها الأدب**، لا لينعزل، بل ليستقل، وليبقى في استقلاله قولا لما هو حاضر فيه.

ولئن كان عملي في هذا الاتجاه الذي أشرت إليه، مازال في بدايته، فإنني وفي الحدود

هذه، أستطيع القول بأني أحاول النظر في العلاقات الداخلية في النص دون عزله ودون إغلاقه على نفسه (...).»[19]

وهكذا يتضح بعد الذي قدمناه أعلاه، أن لا أحد من الناقدين ألزم نفسه بتطبيق البنيوية في كتابه، بل إننا وجدنا العيد تنتقد البنيوية وتصفها بالعجز والقصور، وترفض الاكتفاء بها في نقدنا العربي. وهنا نتساءل بكل براءة: هل قرأ مؤلفو الكتاب المدرسي كتابي شريق والعيد؟ لا نريد أن نجيب –جازمين– بالنفي. لكن إذا كان الجواب بالإثبات، فكيف سمحوا لأنفسهم باقتطاف هذين النصين من كتابين كان صاحباهما واضحين في بيان منهجهما «النصي»؟

وفي الأخير، نحب أن نفترض أننا سلمنا لمؤلفي الكتاب بأن شريقا والعيد قدما في نصيهما تحليلا بنيويا، أترى ذلك يحل المشكلة؟ الجواب عن هذا السؤال هو بالنفي طبعا؛ أي أن ذلك لا يحل المشكلة بل يزيدها تعقيدا، لأن التحليل الذي قدمه الناقدان يتعارض مع ما جاء في النص النظري الذي انتقاه المؤلفون وأوردوه في كتابهم؛ إذ يذهب شكري عزيز الماضي – صاحب هذا النص – إلى أن البنيويين ينطلقون في تحليلهم «من ضرورة **التركيز على الجوهر الداخلي للنص الأدبي**، وضرورة التعامل مع النص دون أية افتراضات سابقة من أي نوع من **مثل علاقته بالواقع الاجتماعي أو بالحقائق الفكرية أو بالأديب** وأحواله النفسية والاجتماعية (..).»[20] كما يرى الماضي أن التحليل البنيوي يستهدف تعرف بنية النص أو نظامه فقط دون الاهتمام بدلالتها أو معناها؛ إذ يقول: «وحين يتم التعرف على بنية النص أو «نظامه» **لا يهتم التحليل البنيوي بدلالتها أو معناها**. فلو فرضنا أن ناقدا بنيويا توصل إلى الكشف عن بنية رواية من روايات نجيب محفوظ فإنه **لا يبحث ولا يهتم ولا يتساءل عن دلالتها أو معناها** أو ما الذي فرضها، أو عن العوامل المؤثرة في تشكيلها، أو لماذا جاءت على هذه الشاكلة (...).»[21]

ثانيا: يعد كتاب **نظرية البنائية في النقد الأدبي** لصلاح فضل، الصادر أواخر السبعينات من القرن الماضي، من الكتب الرائدة التي ألفت حول البنيوية في النقد العربي، ومن حسنات كتاب **في رحاب** أن مؤلفيه اقتطفوا من هذا الكتاب نصا واضحا وموجزا يحدد مستويات الدراسة البنيوية للأعمال الأدبية، بعنوان: «مستويات الدراسة الأدبية».[22] أما مؤلفو كتاب **الواحة**، فلم يذكروا الكتاب حتى حين تحدثوا عن مؤلفات صلاح فضل،[23] وفضلوا أخذ نص له – طويل نسبيا – من كتابه: **مناهج النقد المعاصر**، الصادر حديثا.

وقد اشتمل هذا النص على مغالطتين، هما:

1. ذهب صلاح فضل إلى أن حقل الدراسات اللغوية التي نشأت فيها البنيوية مطلع القرن العشرين، «كان يمثل طليعة الفكر البنيوي، وإن لم تستخدم فيه منذ البداية المصطلحات

البنيوية»،[24] وهذا الكلام غير دقيق. فصحيح أن فردناند دي سوسير Ferdinand de Saussure لم يستعمل في كتابه: **محاضرات في علم اللغة العام**، الصادر عام 1916 بباريس، وهو بالمناسبة عبارة عن مجموعة من المحاضرات وليس «المقالات» كما جاء في كتاب المناز،[25] لكنه استخدم فيه مجموعة من المصطلحات البنيوية، مثل: النظام أو النسق، واعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، واللغة والكلام، والتزامن والتعاقب، والمحور العمودي والأفقي، وغيرها من المصطلحات. ولم يكتف فضل بنفي استخدام المصطلحات البنيوية في حقل الدراسات اللغوية التي نشأت فيها البنيوية، بل إنه عاد في النص نفسه ليؤكد بأن «مصطلح البنية»، قد نشأ أساسا في علم اللغة، حيث يقول: «يمثل علم اللغة المنبع الحقيقي لمجموعة المصطلحات التي استخدمتها البنيوية في مجال النقد الأدبي، كما مثل أيضا منبع تلك المصطلحات التي استخدمت في المجالات المعرفية الموازية لها.

في مقدمة هذه المصطلحات، مصطلح «البنية»، لأنه هو التأسيس في العملية كلها، ومصطلح البنية قد نشأ في علم النفس موازيا لفكرة الجشطالت أو الإدراك الكلي، وكان قد نشأ في الأنتربولوجيا أيضا لإدراك نظم العلاقات في المجتمعات البدائية والإنسانية بصفة عامة، ونشأ أيضا في علم اللغة (...).»[26]

2. يقول صلاح فضل: «أصبح العالم منذ السبعينات فيما يتصل بالأدب والنقد شديد الميل إلى التبنين، إلى إعادة قراءة المنهجيات المتعامدة والمتداخلة لبلورة هذا التطور المفاهيمي والمعرفي للفكر النقدي (...)، فغزت المصطلحات البنيوية بقية الحقول المعرفية بالتوازي مع الأدب والنقد، وشكلت الإطار المفاهيمي العام للفكر والثقافة في العالم في العقود الأخيرة، حتى إن التيارات التي أعقبتها كانت تأسيسا عليها وتنمية لمبادئها وتداركها للنواقص (كذا) التي أسفرت الخبرة الإبداعية والفكرية عن تحديدها في مسارها.»[27]

وهذا القول مردود من الوجهين الآتيين:

أ. أن العالم، ونقصد هنا العالم الغربي موطن البنيوية، قد أصبح منذ السبعينات فيما يتصل بالأدب والنقد وغيرهما من الحقول المعرفية، شديد الميل إلى «التفكّك» لا إلى «التبنين»! إذ من المعلوم أن الفكر الغربي عامة، كان قد انتقل، منذ أواخر الستينات، إلى تفكيكية جاك دريدا Jacques Derrida وإلى ما بعد البنيوية، بل إن كثيرا ممن كانوا من أنصار البنيوية ومن أشد المتحمسين لها، انتقلوا إلى ما بعدها (رولان بارت Roland Barthes مثلا).

ب. التيارات التي أعقبت البنيوية لم تكن تأسيسا عليها وتنمية لمبادئها وتداركا لنقائصها، بل كانت تجاوزا لأسسها ومبادئها وتقويضا لها.

ثالثا: اشتمل كتاب **في رحاب** على نص نقدي تطبيقي مأخوذ من كتاب محمد مفتاح: **تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)**، يحلل فيه الناقد بيتا شعريا للشاعر الأندلسي ابن عبدون. ورغم أن هذا النص واضح وملائم لمستوى التلاميذ، إلا أنه يمكن القول بأنه لا يقدم للتلميذ صورة دقيقة عن التحليل البنيوي، وإنما عن التحليل «النصي» الداخلي للنص الشعري.

ذلك أن مفتاحا يقرر في مدخل كتابه الذي خصصه للكشف عن الخلفيات الفلسفية لبعض النظريات اللسانية، أنه استوحى تحليله للخطاب الشعري من «اللسانيات والسيميائيات»، وأنه، حين قرر تدريس الخطاب الشعري العربي والكتابة فيه، اعتمادا على هذين العلْمين، تردد بين أمرين اثنين، هما: الاقتصار على دراسة ما كتبته مدرسة واحدة، ومحاولة فهم مبادئها العامة والخاصة ثم تطبيقها على النص الشعري. لكنه رفض هذا الخيار، لقصور النظرة الأحادية ولعجز كل المدارس عن صياغة نظرية شاملة. وهذا الأمر قاده إلى اختيار التعدد وذلك «رغم ما يتضمنه من مشاق ومزالق». وإذا كان «اتباع النظرية الواحدة يقي من الانتقائية والتلفيقية»، فإن الأخذ من نظريات مختلفة يحتم الانتقائية ولكنه لا يؤدي إلى التلفيقية بالضرورة، لأن آفة الانتقائية لا تصيب إلا من كان ساذجا مؤمنا إيمانا أعمى بما يقرأ، غير متفطن للظروف التاريخية والابستيمية التي نشأت فيها النظريات، وغير قادر على تمييز الثوابت من المتغيرات في كل منها، وعلى ما تجتمع عليه وتفترق». [28]

ويصنف مفتاح النظريات اللسانية إلى ثلاث مجموعات كبرى، هي:

1. التيار التداولي بفرعيه: نظرية الذاتية اللغوية ونظرية الأفعال الكلامية.
2. التيار السيميوطيقي.
3. التيار الشعري.

ويؤكد أن ثمة اختلافات أساسية بين هذه النظريات في موقفها من أنواع الخطاب الأدبية، وأن هذا الاختلاف، وهذا «التبلبل النظري ليس إجرائيا فحسب، وإنما تحكمه خلفية فلسفية معلنة أو مضمرة». وللتغلب على هذه العوائق، الإجرائية والابستمولوجية، يقترح ضرورة تعرف تلك الخلفية قصد «فرز العناصر النظرية الصالحة لاستثمارها في إطار بناء منسجم». ومن خلال عملية الكشف عن هذه الخلفيات توصل إلى أن ثمة معسكرين متقابلين ومتعارضين:

الأول يرى أن اللغة بريئة ومحايدة وشفافة، وتصف الواقع وتعكسه كما هو، وأن الذات المتكلمة هي العلة الأولى والأخيرة في إصدار الخطاب... (تشومسكي، وكرايس، وسورل، والوضعيون، والماركسيون...).

أما الثاني، فينظر إلى اللغة على أنها مخادعة ومضللة، وتظهر غير ما تخفي، وأنها لا تقف عند حدود وصف الواقع وإنما تخلق واقعا جديدا، وأن الهيأة المتلقية لها دور كبير في إيجاد الخطاب وتكوينه... (بارت، والجشطالتيون، والشعراء، ونظرية التفاعل...).[29]

ويخلص مفتاح، بعد ذلك، إلى ضرورة تحطيم هذه الثنائيات التي جعلت المعسكرين يتقابلان، «وفسح المجال أمام تعايش عدة عناصر. وقد سرنا نحن - يقول مفتاح – في هذه الوجهة، فاستغللنا عناصر من النظريات اللغوية الوضعية والذاتية ووفقنا بين الذاتية والمجتمعية».[30] ويؤكد أن «هذه النظرية الكلية الجامعة بين اللسانيات الوضعية والذاتية المستغلة لكل معطيات النص قربتنا خطوات في سبيل إدراك خصوصيات النص الأدبي».[31]

وهكذا يظهر جليا أن الناقد لا يقدم في كتابه تحليلا بنيويا للنص الشعري، بل تحليلا «مركبا»، لأن منهجه ليس هو البنيوية، وإنما هو ما يسميه الناقد بالمنهج «التركيبي» القائم أساسا على الانتقائية والتوفيق بين عدد من المفاهيم التي تنتمي إلى مقاربات ونظريات لسانية مختلفة.

من هنا فإن نصوص الكتاب لا تمثل البنيوية، ولا يمكن إدراجها ضمن التحليل البنيوي للنص الشعري، بل هي تندرج ضمن المقاربة متعددة المستويات. ويبدو أن مؤلفي كتاب **اللغة العربية**، للسنة الثالثة الثانوية، شعبة الآداب، الصادر عام 1996، كانوا على وعي بهذا التعدد، وذلك حين أخذوا من كتاب مفتاح نصا نقديا، ووضعوا له عنوانا دالا على هذا التعدد، وهو: «القراءة ذات المستويات المتعددة».[32]

رابعا: قسم مؤلفو كتاب **في رحاب** البنيوية في النقد الأدبي إلى اتجاهين اثنين، هما: جماعة الشكلانيين الروس، والبنيوية التكوينية التي يتزعمها الناقد الفرنسي لوسيان كولدمان.[33] ولنا على هذا التقسيم الملاحظتين الآتيتين:

1. إذا كانت الشكلانية formalisme الروسية، التي ظهرت في الفترة الممتدة من عام 1915 إلى عام 1930 على وجه التقريب، إذا استثنينا أعمال رومان جاكبسون Roman Jakobson ومدرسة براغ École de Prague اللسانية، تمثل اتجاها من اتجاهات البنيوية، وليس مجرد رافد من روافدها، وأصلا من أصولها، فإن ذلك لا يستقيم والقولَ – في الكتاب نفسه – بأن انتقال البنيوية من اللغويات إلى الأدب إنما حدث أوائل الستينات من القرن الماضي،[34] لأن أعمال الشكلانيين الروس ظهرت قبل ذلك بكثير.

ثم إن هناك من يميز بشكل واضح بين الشكلانية الروسية والبنيوية. فكلود ليفي ستروس، وهو أحد رواد البنيوية، يعتبر الشكلانية الروسية مذهبا مستقلا يختلف عن البنيوية. يقول

ستروس، في سياق حديثه عن فلاديمير بروب Vladimir Propp وكتابه **علم تشكل الحكاية**، الصادر عام 1928: «يُتهم أنصار التحليل البنيوي في اللسانيات والإناسيات بالشكلانية غالبا. وهذا نسيان من المتهمين أن الشكلانية مذهب مستقل، تخالفه البنيانية، من غير أن تنكر ما تدين له به، بسبب المواقف المختلفة جدا التي تقفها المدرستان من الملموس. فعلى النقيض من الشكلانية، ترفض البنيانية مقابلة المجرد بالملموس، وتمتنع عن الاعتراف للأول بقيمة ممتازة. ذلك بأن الشكل يتحدد بتعارضه مع مادة غريبة عنه؛ لكن البنية ليس لها أي محتوى متميز لأنها هي المحتوى وقد تم إدراكه في تنظيم منطقي يعتبر خاصية الواقع.»[35]

من هنا، وجب استحضار الفروق بين الشكلانية الروسية والبنيوية أثناء الحديث عنهما.

2. حين يعتبر مؤلفو الكتاب البنيوية التكوينية لمؤسسها لوسيان كولدمان، اتجاها من الاتجاهات البنيوية في النقد الأدبي، فإن هذا يوقعهم في تناقض واضح يضع المدرس والمتعلم معا في حيرة؛ إذ كيف يكون كولدمان ممثّلا للنقد البنيوي، ومؤسسا لأحد اتجاهاته، في الوقت الذي قُدم فيه، وفي الكتاب نفسه، بوصفه أحد أبرز مؤسسي المنهج الاجتماعي والباحثين في موضوع علم اجتماع الأدب، وذلك عبر «تطوير» جملة من المفاهيم الجديدة و«إفرازها» «في النقد الاجتماعي»، مثل مفهوم «رؤية العالم»![36]

خامسا: ذهب مؤلفو كتاب **في رحاب** إلى أن النقد الأدبي «كان أول من (كذا) تأثر بهذا المنهج (البنيوية) واستفاد منه بحكم التقدم الذي أحرزته البنيوية في مجال الدراسات اللغوية التي تلتقي مع الدراسات الأدبية في موضوع اللغة.»[37]

والحقيقة أن النقد الأدبي ليس هو أول مجال انتقلت إليه البنيوية اللغوية، فمن المعروف أن البنيوية ظهرت في الرياضيات والفيزياء وعلم النفس، وغيرها من المجالات المعرفية الأخرى، قبل أن تظهر في مجال اللسانيات.[38] وبعد نشأة البنيوية اللغوية على يد فردناند دي سوسير، كانت الأنثروبولوجيا هي المجال المعرفي الأول الذي انقلت إليه، وذلك أواسط العقد الرابع من القرن الماضي؛ إذ من المعلوم أن كلود ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss كان سباقا إلى نقل البنيوية من اللسانيات إلى الأنثربولوجيا منذ عام 1945، وهو العام الذي كتب فيه مقالته الرئيسية: «التحليل البنيوي في اللسانيات وفي الأنثربولوجيا».[39]

ولذلك يقول عبد العزيز حمودة «(...) إن كتاب الأنثروبولوجيا البنيوية كان هو الآخر نقطة بداية البنيوية غير اللغوية – من باب الدقة – تماماً كما كان كتاب سوسير بداية للبنيوية اللغوية.»[40]

فإذا كان النقد الأدبي هو المجال الأول الذي انتقلت إليه البنيوية قادمة من الدراسات اللغوية، فإن هذا يتعارض وقول مؤلفي الكتاب بأن هذا الانتقال إنما حدث «في أوائل الستينات من القرن الماضي.»[41]

كما أنه يتعارض مع ما جاء في كتاب الواحة الذي ذهب مؤلفوه إلى أن ظهور المنهج البنيوي في النقد الأدبي «جاء متأخرا في العالم الغربي.»[42]

سادسا: أورد مؤلفو كتاب الممتاز في خانة «إضاءات»، نصا نقديا قصيرا لفؤاد أبي منصور، يحسم فيه بمنتهى البساطة قضية من أشد القضايا إثارة للجدل، وهي قضية ما إذا كانت البنيوية فلسفة أم مجرد طريقة إجرائية. يقول أبو منصور: «البنيوية ليست فلسفة. إنها طريقة صارمة تصر على الاكتناه المتعمق والإدراك متعدد الأبعاد، والغوص على المكونات الفعلية للنص والعلاقات التي تنشأ بين هذه المكونات.»[43]

ومن المعلوم أن هذه القضية إشكالية خلافية بين أنصار البنيوية والباحثين؛ فبينما ذهب أنصارها، في الغرب وفي العالم العربي، إلى أنها مجرد طريقة إجرائية (كلود ليفي ستروس،[44] جان بياجيه،[45] كمال أبو ديب،[46] سعيد الغانمي،[47] عبد الله الغذامي[48] ...)، نجد أن كثيرا من الباحثين –الغربيين والعرب كذلك- يؤكدون أنها مذهب فلسفي شامل، وليست مجرد أدوات إجرائية وآليات للتحليل (روجي جارودي،[49] فؤاد زكريا،[50] سعد البازعي، ميجان الرويلي[51] ...).

من هنا، نرى أنه كان يجب تجنب إثارة هذه القضية الخلافية التي لم يستطع الباحثون حسمها. أما إذا رأى المؤلفون ضرورة إثارتها لأهميتها، فكان عليهم طرحها في مرحلة التقويم، لتتاح للمتعلم فرصة مناقشتها وإبداء رأيه فيها كما فعل مؤلفو الواحة.[52]

*** خاتمة:**

هذه جملة ملاحظات عنّت لي وأنا أقرأ ما ورد في الكتب المدرسية الثلاثة حول المنهج البنيوي، وهي ملاحظات لا تنتقص من قيمة هذه الأعمال، وإنما تروم تصويب أخطائها وتتميم نقصها لترقى بها إلى المستوى المطلوب. ولذلك، أجدد، هنا، التنويه بالمجهودات التي بذلها مؤلفوها في تقريب البنيوية إلى أذهان المتلقين، عن طريق انتقاء النصوص النقدية النظرية والتطبيقية، وتذييلها بجملة من الأنشطة التي تمكن المتعلم من قراءة هذه النصوص قراءة منهجية متكاملة. كما أؤكد أن الخلل الوارد في نصوص الكتاب ما هو إلا جزء من الخلل والاضطراب الذي يعاني منه نقدنا العربي المعاصر عامة.

الهوامش

1 - جميل حمداوي: من مستجدات التربية الحديثة والمعاصرة، منشورات الزمن، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2009، ص211-212.

2 - ابن حزم الأندلسي: التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، في: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2007، مج2، ج4، ص103. وانظر كذلك:

- عبد الرحمن بن خلدون (توفي 808هـ): مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2004، ج3، ص1105-1107.

3 - الممتاز، ص246.

4 - المرجع نفسه، ص255.

5 - المرجع نفسه، ص247.

6 - المرجع نفسه، ص248.

7 - المرجع نفسه، ص248.

8 - المرجع نفسه، ص257.

9 - جان بياجيه: البنيوية، ترجمة: عارف منيمنه، وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1971، ص8 وما بعدها.

10 - إذا كان عبد الله شريق قد نص صراحة في بداية النص على تحليل القصيدة تحليلا نصيا، فإن العيد قد أدرجت النص الذي بين أيدينا تحت القسم الثالث من كتابها، والموسوم ب«النقد والتجريب: دراسات نصية.» انظر:

- يمنى العيد: في معرفة النص، دراسات في النقد الأدبي، دار الآداب، بيروت، ط4، 1999، ص141.

11 - عبد الله شريق: في حداثة النص الشعري، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، القنيطرة، ط1، 1995، ص33.

12 - المرجع نفسه، ص33.

13 - عنوان الفصل هو: «المنشأ اللساني للبنيوية، تعريف نطرحه على مسارنا النقدي»، ص37.

14 - يمنى العيد: في معرفة النص، ص11.

15 - المرجع نفسه، ص48-49.

16 - المرجع نفسه، ص51.

17 - المرجع نفسه، ص11-12.

18 - المرجع نفسه، ص21.

19 - المرجع نفسه، ص22.

20 - الممتاز، ص238.

21 - المرجع نفسه، ص238.

22 - في رحاب، ص241.

23 - الواحة، ص237.

24 - المرجع نفسه، ص238.

25 - الممتاز، ص236.

26 - الواحة، ص238.

27 - المرجع نفسه، ص239.

28 - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط3، 1992، ص7.

29 - المرجع نفسه، ص14-15.

30 - المرجع نفسه، ص15.

31 - المرجع نفسه، ص16.

32 - صدر الكتاب عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ص203.

33 - في رحاب، ص240.

34 - المرجع نفسه، ص239.

35 - كلود ليفي ستروس: البنية والشكل، تأملات في مؤلف لفلاديمير بروب، في: مساجلة بصدد: «علم تشكل الحكاية»، ترجمة: محمد معتصم، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص24.

36 - الواحة، ص209.

37 - في رحاب، ص239.

38 - جان بياجيه: البنيوية، ص17-61.

39 - L'analyse structurale en linguistique et en anthropologie.

40 - عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية على التفكيك، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع232، 1998، ص222.

41 - في رحاب، ص239.

42 - الواحة، ص237.

43 - الممتاز، ص254.

44 - مساجلة بصدد: «علم تشكل الحكاية»، ص88.

45 - البنيوية، ص116.

46 - كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ص7.

47 - سعيد الغانمي: البنيوية: النموذج اللغوي والمعنى الفلسفي، في كتاب: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 1990، ص39.

48 – جهاد فاضل: أسئلة النقد، حوارات مع النقاد العرب، الدار العربية للكتاب (د.ت)، ص206-207.

49 – روجي جارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1981.

50 – فؤاد زكريا: الجذور الفلسفية للبنائية، فؤاد زكريا، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الأولى، 1399هـ/1980م.

51 – ميجان الرويلي، وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط5، 2007، ص67.

52 – الواحة، ص241.